منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

بلاغة الخطاب الديني

إعداد وتنسيق

محمد مشبال



معالم نقدية

محمد مشبال
إعداد وتنسيق

بلاغة الخطاب الديني

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

بلاغة الخطاب الديني

محمد مشبال

• باحث من المغرب.

• صدر له أيضاً:



تهيمن على الخطاب الديني مجموعة من الاستراتيجيات الخطابية والمكونات البلاغية التي تشكّلت وفق النصوص والأنواع التي مثّلته ومازالت تمثله في ثقافتنا العربية الإسلامية. فإذا كانت النصوص النموذجية التي جسّدت هذا الخطاب هي القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، فإن تاريخ هذه الثقافة أفرز لنا رصيدا غنيا من النصوص التي أوصلت لنا هذا الخطاب سواء أكانت تنتمي إلى حقول علمية وأنشطة فكرية من قبيل: البلاغة وأصول الفقه وعلوم القرآن والتفسير، أم إلى أنواع خطابية من قبيل: الوصايا والخطب والمناظرات والأشعار والأدعية والمواعظ والأخبار والرسائل وغيرها.

لقد صدرت أعمال هذا الكتاب عن همّ أساس يتمثّل في توسيع دائرة تطبيقات البلاغة واستكشاف امتداداتها في حقول معرفية وأنواع خطابية مختلفة: في الخطابات الفقهية والتفسيرية والفكرية من جهة، وفي الموعظة والرحلة والوصية والمناظرة من جهة أخرى. وبناء عليه لم يكن المقصود بالخطاب الديني هنا النصوص الدينية المقدسة (القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف) فقط، بل المقصود أيضا كل الخطابات الدينية البشرية: سواء أنتجها أصحابها في معرض تفسير القرآن وتأويله، أم في معرض الاجتهاد في إصدار الأحكام الدينية، أم في معرض توصيل مبادئ الدين وتعاليمه واستلهامها.

9786140212084

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

بلاغة الخطاب الديني

أعمال مهداة للدكتور محمد الولي

طبع في لبنان

بلاغة الخطاب الديني

أعمال مهداة للدكتور محمد الولي

إعداد وتنسيق

محمد مشبال

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

دار الأمان
الرباط

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-02-1208-4

دار الأمان
الرباط

4، زنقة المامونية - الرباط - مقابل وزارة العدل
هاتف: 537723276 212+ - فاكس: 537200055 212+
البريد الإلكتروني: darelamane@menara.ma

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف الرياض: 966509337722+
هاتف بيروت: 9613223227+
editions.difaf@gmail.com

المحتويات

على سبيل الاختتام

كيف ندرس التناص في الخطاب؟
إطار نظري وتطبيقات على بلاغة السياسة الدينية

عماد عبد اللطيف

مقدمة

حظيت العلاقات بين النصوص باهتمام بحثي موغل في الزمن. وكانت مباحث التأثير والتأثر والسرقات الأدبية رائجة في النقد الأدبي العربي وغير العربي على مدار تاريخه الطويل. وتشعب البحث في العلاقات النصّية إلى درجة مثيرة للاهتمام، تنعكس بوضوح – على سبيل المثال – في التقسيمات والتفريعات العديدة التي وضعها قدامى النقاد والبلاغيين العرب لتأثر المبدعين بنظرائهم السابقين[1]. غير أن العقود الأخيرة شهدت تحولاً جذريًا في دراسة العلاقات بين النصوص، تتمثل بعض علاماته في أمور منها:

1- تجاوز دراسة العلاقات النصّية على مستوى وحدات صغرى مثل الجملة أو العبارة إلى دراستها على مستوى النصّ والخطاب.

2- تزايد الاهتمام بدراسة الأبعاد الإيديولوجية للعلاقات النصيّة، خاصة في ظل دراسة تفاوت الرأسمال الرمزي للنصوص، واستكشاف العلاقات المعقدة بين الخطاب والسلطة.

(1) انظر على سبيل المثال التقسيمات والتمييزات التي أوردها محمد بن الحسن الحاتمي (ت. 388) في الفصل الخامس من كتابه حلية المحاضرة في صناعة الشعر، تحقيق جعفر الكتاني، دار الرشيد، بغداد، 1979.

3- تجاوز الاهتمام بالعلاقات النصيّة بين النصوص الأدبية، إلى دراسة العلاقات النصيّة في لغة الحياة اليومية، كما في دراسة التناص في الإعلانات ومحادثات العمل والمحاورات التلفزيونية والتعليقات الإلكترونية على فضاءات التواصل الاجتماعي... إلى آخره.

4- دراسة العلاقات النصيّة من منظور الطبيعة التفاعلية (الحوارية) والتاريخية للغة والخطاب.

في هذا البحث سوف أقدم إطارًا نظريًا ونموذجًا تطبيقيًّا لدراسة التناص في الخطاب. يتكون الإطار النظري من خمس مراحل، كل مرحلة تتضمن عددًا من الأسئلة البحثية، وإجراءات تحليل. وسوف أطبقه على نصوص مأخوذة من خطب سياسية عربية تتناص بأشكال متنوعة مع الخطاب الديني، وتُدوولتْ في سياقات تاريخية حاسمة. وقبل أن أشرع في تقديم إطار تحليل التناص في الخطاب، سوف أقوم فيما يأتي بتعريف أهم المصطلحات الواصفة لعلاقات النصوص، والتي تُتداول في هذا البحث.

تحديد المفاهيم

يعاني الباحثون في العلوم الإنسانية عادة من آثار اضطراب البنى الاصطلاحية، أكثر من نظرائهم في العلوم التطبيقية والبحتة. فتعدد المصطلحات الدالة على مفهوم واحد، وتعدد المفاهيم التي يُحيل إليها مصطلح واحد، وغموض تعريف المصطلحات وإغفال تحديد المفاهيم، وعدم وضوح العلاقة بين المفاهيم والمصطلحات وثيقة الصلة، تؤدي في كثير من الأحيان إلى مشكلات عويصة. وتزداد هذه المشكلات ضراوة في الحقول المعرفية التي تعتمد بشكل كبير على إسهامات نظرية أجنبية، حيث تضيف الترجمات المختلفة للمصطلح، والصياغات المتباينة لصوغ مفهوم واحد، مزيدًا من التعقيد. هذه المشكلة يمكن التقليل من آثارها السلبية من خلال التحديد الدقيق لمفاهيم المصطلحات المستخدمة في كل بحث. وفيما يتعلق بالبحث الراهن فسوف أُعرِّف بخمسة مصطلحات، هي:

1 - التناص

مصطلح التناص هو الأكثر مركزية وشهرة بين المصطلحات الواصفة للعلاقات النصيّة؛ وهو ترجمة لمصطلح غربي ذي أصل لاتيني هو intertextuality. وأستخدم هذا المصطلح على مدار الدراسة ليشير إلى جميع أشكال العلاقات النصيّة، أي كل العلاقات التي يمكن أن توجد بين نصوص طبيعية غير مصنوعة. وهو من ثمَّ يشير إلى مفهومٍ عام جامع، يندرج في إطاره عدد من المفاهيم الصُغرى التي تستقل بمصطلحات خاصة، على نحو ما سنفصل في الفقرات الآتية.

2 - التضفير الخطابي

وهو من المصطلحات التي تشكل ظواهر جزئية ضمن "التناص"، وهو بدوره ترجمة لمصطلح ذي أصل لاتيني هو interdiscursivity، ويترجمه البعض بالتداخل الخطابي. غير أنني آثرتُ منذ 2005 أن أستخدم مصطلح "التضفير الخطابي"، لكونه يحمل فحوى الارتباط الوثيق الغرضي بين الخطابات، وإن كنتُ أعتقد الآن أنني أخطأتُ بالعدول عن ترجمة أقرب تناولاً (هي التداخل الخطابي) إلى أخرى أقل ألفة (هي التضفير الخطابي)؛ بغض النظر عن أنها ربما كانت أكثر دقة.

يشير مصطلح التضفير الخطابي إلى ظاهرة التداخل بين خطابات تنتمي إلى حقول مخصوصة من النشاط البشري، أو أنواع لها تقاليدها الخاصة. فالتضفير الخطابي "شكل من أشكال التناص يحدث عندما تترابط خطابات وأنواع مختلفة في حدث اتصالي ما"[1]. بصياغة أخرى فإن التضفير الخطابي يتحقق حين يحدث التناص على مستوى الخطابات أو الأجناس (الأنواع) الخطابية. على سبيل المثال، يمكن أن نُسمِّي تضمُّن قصيدة ما أبياتا من قصيدة أخرى تناصًا، بينما نُسمي تضمُّن مقال أكاديمي حول سلوك الحيوان مثلاً، أبياتا شعريةً تضفيرًا خطابيًا؛ نظرا

---

(1) انظر، يورغنسن وفيليب. Jørgensen, M. and Louise Phillips. (2002). Discourse Analysis as Theory and Method. London; Thousand Oaks, Calif: Sage Publications، ص 73.

لأن النص الأول ينتمي إلى الخطاب العلمي في حين ينتمي النص الثاني إلى الخطاب الشعري (الأدبـــي)، كما أن النص المتناص ينتمي إلى نوع Genre "المقال"، بينما ينتمي النص المتناص معه إلى نوع "القصيدة". ولابد من التأكيد هنا أننا نســـتخدم مصطلح الخطاب، في سياق الحديث عن التداخل بين الخطابات، بمعنى خاص هـــو الكلام والنصوص المنتميان إلى حقلٍ محددٍ من النشاط البشري. ويمكن بالاســـتناد إلى هذا التعريف التمييز بين الكلام والنصوص المنتج في حقل النشـــاط الـــديني، مكونًا خطابًا دينيًا، والكلام والنصوص المُنتج في حقل النشاط السياسي، مكونًـــا خطابًا سياسيًّا؛ وسوف نلقي الضوء على هذا التمييز لاحقًا.

3 – الحوارية dialogicality

مصطلح من نحت ميخائيل باختين، استخدمه ليُشير إلى نوع من العلاقات بين النصوص يستجيب فيه نص ما لنص آخر، إما على نحو جلي؛ فنكون أمام حواريـــة ظاهرة overt dialogicality، حيث تحضر ذوات النصين وذوات المتكلمين فيهـــا؛ كما هو الحال في تسجيل مكالمة تليفونية بين طرفين، أو على نحو مخفي؛ فنكون أمام حوارية مستترة hidden dialogicality (Bakhtin, 1984, 198). ووفقًا لبـــاختين، تتحقق هذه الحوارية المستترة حين يكون المتحاوَر معه مخفيًّا، وكلماته غير موجودة، لكن ما تتركه هذه الكلمات من أثر عميق يكون شديد التـــأثير في كـــل تجليـــات خطاب المتكلم، فكل كلمة ينطق بها تردُّ على المتحاور معه المخفي، وتتفاعل معـــه، وتشير إلى شيء خارجها، يتجاوز حدودها؛ هو كلمات المتحاور معه المخفي، التي لم يُنطَق بها مطلقًا؛ تمامًا كما هو الحال – على سبيل المثال – حين يكون لدينا كلام طرف واحد في محادثة تليفونية.

4 – الانتقاد الظاهر والمستتر Hidden and overt polemic

مصطلح باختيني أيضًا، يتحقق حين يقوم خطاب المتكلم بشن عاصفة انتقاديـــة على خطاب شخص آخر مغاير. ويكون الانتقاد ظاهرًا إذا أشار بوضوح إلى الخطاب المنتقَد، أو أعاد إنتاجه بشكل أو آخر. أما إذا لم يشر إلى هذا الخطاب إشارة صـــريحة،

أو يُعيد إنتاجه فإننا نكون إزاء الانتقاد المستتر (Bakhtin, p. 195-197). وعلى سبيل المثال فإن تفنيد السياسيين في المناظرات السياسية لحجج وآراء خصومهم، يصنَّف عادة ضمن الانتقاد الظاهر، أما التعريض بمواقف هؤلاء الخصوم في بيان سياسي مثلا، دون إشارة إليهم أو ذكر لحججهم، فيقع ضمن الانتقاد المستتر.

5 – إعادة بناء السياق recontextualiztion

مصطلح شائع في الدراسات النقدية للخطاب يشير إلى العلاقة بين النصوص في بيئة التواصل[1]. ويعني المصطلح إعادة إنتاج نص ما، وتجذيره في سياقات أخرى مغايرة لسياق إنتاجه الأصلي. وعلى سبيل المثال فإن عبارةً لأحد الفائزين في حفل تسليم جائزة نوبل للفيزياء، سوف تنتمي إلى الخطابة المحفلية من زاوية النوع وإلى الخطاب العلمي من زاوية طبيعة النشاط البشري، وإلى التواصل الحي المباشر من زاوية الوسيط. وفي اليوم التالي من المحتمل بقوة أن يُعاد بناء سياق هذه العبارة حين توضع عنوانًا في صحيفة محلية، أو في شريط الأخبار في قناة تلفزيونية، أو في تقرير مصور في محطة أخرى. وبعد أيام، من المحتمل أن يُعاد بناء سياق العبارة نفسها في مقال رأي في صحيفة، أو حين يستشهد بها سياسي في خطبة حول البحث العلمي، أو حين يوردها رجل دين في موعظته الدينية الأسبوعية. ومن المحتمل بعد عشرات أو مئات السنين أن يظل يُعاد بناء سياق العبارة نفسها، في شكل كلمة منقوشة على أحد حوائط المدينة التي عاش فيها هذا العالم، أو كتيبات تاريخ العلم، أو مجلدات الأقوال المأثورة. في كل مرة تُستخدَم فيها العبارة يُعاد بناء سياق جديد لها بوظائف جديدة ودلالات جديدة، قد تكون في بعض الأحيان مغايرة كلية لسياقها الأصلي.

هذه الشبكة من المصطلحات الواصفة لأشكال من العلاقات النصيّة، لا تُغطي كل هذه العلاقات. وفي الحقيقة فإن البحث الحالي يركز بشكل أساسي على ظاهرة التضفير الخطابي، غير أنه يحيل إحالات سريعة إلى ظواهر أخرى

(1) انظر Chilton, p. and C. Schäffner. (eds.). (2002). *Politics as Text and Talk: Analytic Approaches to Political Discourse*. Amsterdam: John Benjamin‘s, p. 23.

تقع كذلك في إطار التناص. وسوف أقوم فيما يأتي بتحديد إطار تحليل التناص في العينة المدروسة.

إطار التحليل

يتكون إطار التحليل الذي أقترحه في هذا البحث من خمس مراحل؛ هـي: (1) تحليل النص؛ (2) تحليل السياق؛ (3) تحليل التلقي؛ (4) تحليل الاستجابة؛ وأخيرًا (5) تحديد خصائص الخطابات المتضافرة. هذه المراحل الخمس تغطي الأبعاد المختلفة للحدث الخطابي، والعمليات المتنوعة التي ينطوي عليها التعالق النصي. وقبل الشروع في التعريف بكلٍّ منها من الضروري التأكيد على أن التكوينات اللغوية والبلاغية للخطاب، مثل التناص أو الاستعارة أو الحذف أو التقديم والتأخير، لا تتحقق في النص مستقلة عن غيرها من التكوينات وتقنيات الأداء، كما أنها لا تُنجز وظائف خطابية بمفردها، فكل وظيفة إنما هي نتاج لتعاضد كل تشكلات الخطاب وأداءاته وعناصر سياقه وتداوله. كما يجدر بالذكر أن الترتيب الذي جاءت وفقه مراحل إطار التحليل السابق ذكرها ليس مُلزمًا، ويمكن للباحث أن يبدأ بأي مرحلة شاء، على أن يحرص على ترابط أبعاد التحليل وتماسكه.

تتضمن كل مرحلة من المراحل الخمس لتحليل التناص عددًا من الإجراءات والأسئلة البحثية. وذلك على النحو الآتي:

أولاً: تحليل النص:

ويُدرس فيها تشكُّل النص، والتغييرات التي أجراها المؤلف على النص الذي أدمجه في خطابه (النص المصدر). ويمكن في هذه المرحلة أن تُطرح أسئلة من قبيل:

- هل أجريت تعديلات أو تكييفات على النص المصدر لكي يتناسب مع النص الهدف؟
- ما وظائف هذه التعديلات والتكييفات؟
- هل أجريت تعديلات وتكييفات على النص المستهدف ليتلاءم مع النص المصدر؟ وكيف؟

- ما الوظائف التي تستهدفها مثل هذه التعديلات؟
- ما الظواهر الخطابية التي تبدو شديدة الارتباط بالتناص مع النص المصدر؟
- لماذا اختير النص المصدر دون غيره من النصوص؟

نموذج تحليلي (1): تكييف النص المصدر بالحذف

في الخامس من فبراير 1977، بعد أيام قليلة من خروج مئات الآلاف من المصريين في مظاهرات عارمة عبر أرجاء البلاد للاحتجاج ضد رفع أسعار السلع الأساسية، ألقى الرئيس المصري أنور السادات خطابًا شهيرًا عبر التلفزيون. وقبيل نهاية الخطاب تحدث السادات إلى مستمعيه قائلا:

> «بأقول لشعبنا زي ما ربنا سبحانه وتعالى ما خاطبنا وقال "لا تحزنوا وأنتم الأعلون"، إحنا منتصرين بإذن الله، وسنصل إلى أهدافنا بإذن الله».

تتضمن هذه العبارة تناصًا مع الآية رقم 139 من سورة آل عمران، التي تتضمن قوله تعالى "وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ". وقد أحدث الخطيب تكييفات بالحذف على الآية الأصلية، فقد أخذ الجزء الأوسط من الآية، وترك مفتتحها وخاتمتها. كما أسقط جملة الأمر الأولى؛ وهي قوله تعالى: "ولا تهنوا"، وكذلك الجملة الشرطية المقيِّدة لتحقق العلو؛ وهي قوله تعالى "إن كنتم مؤمنين". كما أسقط الواو العاطفة التي تسبق "ولا تحزنوا" لكي تنقطع الصلة بين المعطوف والمعطوف عليه، ويتمكن من التناص مع الجزء الذي اختاره من الآية.

يُمارِس كل فعل للتناص عملية استبعاد واختيار - واعية أو غير واعية - من بين العناصر المكوِّنة للنص الذي يتناص معه، ثم يقوم بعملية تكييف لما يختاره. وعلى الرغم من أن هاتين العمليتين تبدوان طبيعيتين فإنه من الضروري طرح أسئلة تتعلق بمحركات الاستبعاد والاختيار، وطبيعة التغييرات التي يُحدِثها النص المتناص في النص المتناص معه، والأثر الذي يمارسه السياق اللغوي للنصين (Co-text) وسياقاهما الخارجيان (Con-text).

لقد أدخلت الخطبة تعديلاً على الآية التي تناصت معها، والتي تتكون من ثلاث جمل؛ الأولى والثانية (ولا تهنوا، ولا تحزنوا) جملتا نهي، والثالثة جملة خبرية شرطية يتوقف فيها فعل الشرط "أنتم الأعلون" على جواب الشرط "إن كنتم مؤمنين". في سياق التناص مع الآية حُذف فعل النهي الأول، كما أُسقط فعل الشرط، وأُبقي على جواب الشرط فقط. وقد أدى ذلك إلى تحويل الجملة من جملة شرطية إلى جملة خبرية بسيطة. ربما يرجع حذف جملة النهي الأولى إلى دلالة الفعل "تهنوا"، الذي يشير إلى الوهن، وهو يُحيل إلى حالة "ضعف". وهي حالة حاولت الخطبة نفي وجودها بقوة. فالفقرة السابقة مباشرة على الفقرة التي ورد فيها هذا التناص تلح على حالة القوة: "إحنا زي ما إحنا أقوياء جدا". أما حذف فعل الشرط فمن الواضح أنه أدى إلى إطلاق الخبر "وأنتم الأعلون" دون تقييد بالإيمان. والمثال الآتي يدرس بُعدًا آخر من التحليل النصي للتضفير الخطابي هو البحث في علل الاختيار[1].

نموذج تحليلي (2): أيديولوجيا الاختيار والاستبعاد

بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد بين أنور السادات ومناحم بيجن، خطب السادات خطابًا شهيرًا في مجلس الشعب المصري، يوم 4 أكتوبر 1978، انتقد فيه الموقف الرافض للاتفاقية، وأنهى عرضه للجزء الأول من الاتفاقية بالعبارة الآتية:

«وإذا استطاعت أية قيادة عربية أن تصل بنا إلى كل آمالنا فنحن أول من يقول لها نعم بكل الإخلاص والنقاء والتأييد الصادق. وصدق سبحانه وتعالى حين قال: (وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (19) وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ (20) وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ (21) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاء وَلاَ الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (22))".

(1) انظر تحليلا معمَّقًا لهذا الخطاب في: عبد اللطيف، عماد. 2012. استراتيجيات الإقناع والتأثير في الخطاب السياسي. الهيئة العامة للكتاب، مصر، 236-242.

وردت مقارنة العمى بالبصيرة في أربعة مواضع في القرآن الكريم، بتنويعات مختلفة هي؛ سورة الأنعام آية 50؛ سورة الرعد آية 16، سورة فاطر آيات 19-22، وسورة غافر آية 58. والسؤال الذي سوف نطرحه هنا يتعلق بدوافع عملية الاختيار، ويمكن صياغته في العبارة الآتية: لماذا اختار الخطيب التناص مع الآيات الواردة في سورة فاطر (19-22) دون غيرها من الآيات التي تقدم الثنائية ذاتها؛ والتي كان من الممكن التناص معها؟

ربما يمكن التعليل لاختيار الآيات الواردة في سورة فاطر بكونها تتضمَّن عددًا من الثنائيات المتعارضة أكبر مما تقدمه المواضع الأخرى. فقد تضمن موضعان من المواضع الأربعة (غافر، والأنعام) ثنائية الأعمى والبصير وحدها، بينما تضمن الموضع الثالث (الرعد) ثنائية ثانية معطوفة عليها؛ هي ثنائية الظلمات والنور. أما آيات سورة فاطر فقد تضمنت ثلاث ثنائيات بالإضافة إلى ثنائية الأعمى والبصير؛ هي: الظلمات والنور، الظل والحرور، الأحياء والأموات. هذه الثنائيات المادية تنتمي إلى حقل الخبرة الإنسانية والبشرية العامة؛ يرتبط بعضها بمن يعيشون في بيئة صحراوية مثل ثنائية الظل والحرور، ويشمل الآخرون البشر على اختلاف بيئاتهم وثقافاتهم. ومن المؤكد أنه كلما تعددت الثنائيات المادية التي تجري مجرى الأمثال تعمَّق التباين وتأكَّد بين الثنائيات المجردة الممثَّل لها. وقد اختيرت الآيات التي تضمَّنت أكبر عدد من الثنائيات، وأكثرها تنوعًا من حيث العلاقة بالخبرة البشرية، والارتباط بالموجودات الطبيعية.

هناك سبب آخر قد يكون وراء التناص مع هذه الآيات بعينها؛ هو أن مسألة عدم المساواة بين طرفي ثنائية الأعمى والبصير تقدم في صيغة سؤال في موضعين من المواضع الأربعة التي وردت فيها: "قل هل يستوي الأعمى والبصير؟!" (الأنعام، والرعد). هذا السؤال يمكن التعامل معه على أنه سؤال بلاغي أو حقيقي. والسؤال يتضمن تحفيزا للمخاطَب على إعمال فكره، ومخضًا لمعرفته. كما يُفسح الطريق أمام المخاطَب للوصول إلى إجابته الخاصة عن السؤال المطروح، وذلك لأنه يكون مدعوًّا للمشاركة في صناعة المعنى واستكمال بنية الخطاب، فلكل صيغة استفهام صيغة رد، حتى لو كان الاستفهام بلاغيًّا. وقد يكون السؤال مفتاحا لمقاومة

دعاوى المتكلم ومواجهتها؛ فإجابة هل..؟ قد تكون: نعم، كما قد تكون: لا. مع الوضع في الاعتبار أن احتمالات تحوُّل الرد إلى فعلٍ مقاوم مشروطة ومقيَّدة بقدرة المخاطَب ورغبته في التعامل مع السؤال على أنه سؤال حَرْفي وليس سؤالاً بلاغيًّا. على خلاف ذلك، يُقدَّم عدم المساواة بين أطراف الثنائيات في الموضعين الأخريين في صيغة خبرية تقريرية قاطعة لا تتيح أدنى إمكانية للتساؤل حول عدم المساواة، حتى ولو بواسطة السؤال البلاغي، "وما يستوي الأعمى والبصير." (فاطر، وغافر). وقد تناصت الخطبة مع أحد هذين الموضعين[1].

إذا سلَّمنا بفكرة أن كل تغيير في الثنائيات الممثِّلة يؤدي إلى تغيير موازٍ في الثنائيات الممثَّل لها فإن النتيجة التي نستخلصها هي أنَّ الخطبة قد تناصت مع الآيات التي لا تتيح للمخاطَب حرية فحص دعوى عدم المساواة بين الثنائيات التي يقدمها المتكلم؛ وهي ثنائيات ممثِّلة لرافضي اتفاق كامب ديفيد ومؤيديه. فقد استُخدمت صيغة تقريرية قاطعة لا تتيح - على مستوى النص - أية إمكانية للمراجعة ولا تسمح بأية مساحة من التشكك. وهي صيغة تريد للمخاطَب أن يكون طرفًا سلبيًا في عملية الاتصال؛ يتلقى ما يُلقى إليه بإيمان وتصديق، ولا تقدم له أي محفز لغوي أو بلاغي لإعمال الفكر أو ممارسة الحق في التشكك. وبذلك يمكن القول إن الخطبة تناصت مع الآيات التي تقدم أقصى تأكيد للتمايز والفصل بين الثنائيات التي تقدمها من ناحية، والتي تسلب المخاطَب أية إمكانية لغوية في مراجعة ما تطرحه من ناحية أخرى. وهكذا فإن دراسة التناص في الخطاب تستلزم بالضرورة طرح تساؤلات بخصوص علله ومحفزاته ودوافعه، والإجابة غالبًا تتعلق بالبُعد الوظيفي للخطاب، والتكوين الشخصي الثقافي والاعتقادي (الإيديولوجي) لفاعل التناص.

ثانيًا: تحليل السياق:

الخطاب هو استعمال لغوي شفاهي أو مكتوب يُنتَج ويُتدَاول ويُستَهلك في سياق اجتماعي تاريخي فعلي محدد. ومن ثمَّ فإن السياق مكوّن أساسي من

(1) انظر عبد اللطيف، عماد. (2012)، مرجع سابق، ص 252-253.

مكونات تحليله. وبدون معرفة عميقة وشاملة بعناصر السياق سوف يكون من الصعوبة بمكان دراسة وظائف الخطاب أو تلقيه. ويتكون السياق من مجموعة عناصر، منها؛ المحددات الفيزيقية والزمانية والمكانية والتاريخية لعمليات إنتاج الخطاب وتداوله وتلقيه والاستجابة له، إضافة إلى وسائط الإنتاج والتداول والتلقي، والفواعل الاجتماعيين المشاركين في هذه العمليات، ويدخل في زمرهم منتجو الخطاب ومتلقوه. ومن الطبيعي أن دراسة جميع هذه العناصر تبدو مهمَّة شاقة، وربما عصيّة على الإنجاز في حال إقدام الباحث على تحليل مدونة كبيرة، متعددة السياقات. وعادة ما يلجأ الباحثون إلى تحليل عناصر السياق الأكثر دلالة وأهمية، استنادًا إلى أسئلة البحث التي يسعى للإجابة عنها.

فيما يتعلق بتحليل سياقات التناص، فإن الباحث يحتاج إلى مقارنة سياق إنتاج النص المصدر (المتناص معه) وتداوله، ومقارنته بسياق النص المستهدف (الفاعل للتناص) وتداوله، واستكشاف عوامل التشابه والاختلاف بينهما، ودلالات هذا التشابه أو الاختلاف. ويمكن للباحث أن يطرح أسئلة من قبيل:

- ما سياق النص المأخوذ من الخطاب المصدر؟
- ما سياق النص المأخوذ من الخطاب المستهدف؟
- ما العلاقة بين سياقي النصين؟
- هل أعيد بناء سياق النص المستهدف؟ وكيف؟ ولماذا؟

وسوف أضرب مثالا على تحليل سياقات التناص تطبيقًا على مقتطف مأخوذ من الخطبة نفسها التي قمتُ بتحليلها في النموذج التطبيقي (1).

نموذج تحليلي (3): غزوة أحد وانتفاضة الخبز

تنتمي الآية التي تناصت معها الخطبة، وهي قوله تعالى "ولا تحزنوا، وأنتم الأعلون"، إلى سياق تاريخي محدد؛ فقد نزلت إثر هزيمة المسلمين في إحدى معاركهم مع أعدائهم القرشيين (الكفار). وقد عُرِفت هذه المعركة في مؤلفات السيرة الدينية بغزوة أحد. فيما يتعلق بالسياق النصي ترد الآية ضمن مجموعة من الآيات التي يخاطِب الله فيها المسلمين الذين حضروا هذه المعركة. تحتوي الآيات

على عدد من جمل الأمر والنهي والجمل الخبرية. هدف الأوامر والنواهي توجيه سلوكيات المسلمين إزاء الهزيمة. أما الجمل الخبرية فإنها تستهدف تخفيف أثر الهزيمة عليهم من ناحية، وتوضيح العلل الكامنة وراء وقوعها من ناحية أخرى.

أما نص السادات فهو إحدى خطبه السياسية الموجهة إلى (الأمة). وقد ألقى الخطبة في الخامس من فبراير عام 1977، وتلقاها الشعب المصري عبر الإذاعة والتليفزيون. جاءت الخطبة بعد 18 يوما من وقوع مظاهرات شعبية عارمة، غطت مدن مصر وقراها من أسوان إلى الإسكندرية، احتجاجا على قرار الحكومة المصرية رفع أسعار 25 سلعة تموينية تحت شعار (ترشيد الأسعار). عُرفت هذه المظاهرات دوليا باسم (مظاهرات الطعام Food Riots). وأطلقت عليها المعارضة المصرية (الانتفاضة الشعبية أو الثورة الشعبية)، في حين أطلق عليها النظام الحاكم وغالبية وسائل الإعلام الحكومية (انتفاضة الحرامية). وكانت هذه الأحداث هي موضوع الخطبة.

تضمنت الخطبة أولاً: تفسير المظاهرات بأنها من عمل بقايا "مراكز القوى" من الشيوعيين الموالين للاتحاد السوفيتي، وأن هدفها كان الاستيلاء على الحكم، وأن رفع الأسعار ليس إلا حجة استخدمها هؤلاء للوصول إلى الحكم. ثانيًا: التنديد بالمظاهرات وتجريم من قاموا بها. ثالثًا: تحميل اليسار المصري بكل طوائفه المسئولية عن التخطيط والتدبير لهذه المظاهرات والمشاركة فيها، ومحاولة جمع طوائف اليسار المتمثلة في الناصريين والماركسيين والاشتراكيين تحت اسم واحد هو "الشيوعيون"، ووصفهم على نحو متكرر بأنهم عملاء، وأنهم لا يؤمنون بالله؛ أي أنهم خونة وملحدون[1]. رابعًا: تبرير مشروع القوانين التي أعلن أنه سوف يطرحها لاستفتاء الشعب، وقد أطلق على هذا الاستفتاء اسم "استفتاء الأمان للوطن والمواطن"، وتضمن قرارات تقضي بالحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة على أي مواطن يقوم بـ "1-التظاهر ضد الدولة 2- الإضراب عن العمل 3- الاعتصام 4- التجمهر 5- إثارة الجماهير."[2]

---

(1) انظر خطبة السادات في 5 فبراير 1977، ص 97-102 من طبعة الهيئة العامة للاستعلامات.

(2) انظر، خطبة السادات في 5 فبراير 1977، مرجع سابق، ص 102-103؛ وانظر أيضًا: عبد اللطيف، 2012، مرجع سابق، ص 238-339.

يتضح من العرض السابق أن ثمة تشابهًا بين سياق الخطبة وسياق النص القرآني الذي تناص معه؛ فالنصان كلاهما يرد بعد أزمة عميقة؛ فقد مثَّلت (أحد) الهزيمة الأخطر في حروب المسلمين الأولى، في حين مثَّلت أحداث يناير 1977 الرفض الشعبي الأكثر عُنفًا وخطورة لنظام السادات. النصان كلاهما قام بتقسيم البشر المشاركين في الأحداث وفقا لموقفهم من الأحداث إلى معسكرين، وما اختلفت التسمية إلا قليلاً، فخندق الموالين كانوا هم المؤمنين، وخندق الأعداء كانوا هم المشركين (في السياق القرآني) والملحدين (في سياق خطبة السادات)، وكلاهما يمثل مقولة دينية تمييزية. وأظن أن طريقة تمثيل المعارضين والتناص مع الآيات الواردة في غزوة أحد ينطوي على استدعاء لبعض تلازمات السياق القرآني، بهدف إسقاطه على الحدث الخطابي لخطبة السادات. وذلك على الرغم من وجود تباينات هيكلية بين النصين ترجع أساسا إلى التباين العميق بين طبيعة العلاقة بين المتكلم والمخاطَب في الخطاب الإلهي العقدي المقدس والخطاب السياسي البشري الحياتي. فالنصان – على المستوى النظري – ينتميان إلى خطابين متمايزين، كما سنفصِّل لاحقًا. لكن التناص بينهما يؤدي إلى تضفير خطابي، يحدث خلخلة هيكلية في الخطبة السياسية، تبدو مقصودة وفعالة، هدفها إعادة بنينتها، وصياغة شروط سياق تلقيها لتتماهى قدر الإمكان مع نصوص أقوى، لا يجوز عليها النقد أو التفنيد أو الاختلاف، مثل النص القرآني. وبذلك نصبح أمام عملية إعادة بناء للسياق الخطابي recontextualization تستهدف على نحو خفي الاستفادة من القوة الإقناعية والسلطوية لسياق تداول النص المصدر.

ثالثًا: تحليل التلقي

تأتي مرحلة تحليل التلقي لتعالج بُعدًا مهمًا من أبعاد الحدث الخطابي هو بُعده التداولي. فالخطاب لا يكتسب كينونته بوصفه خطابًا إلا عبر عمليات التفاعل المعقدة بين المتكلم والمخاطَب/الجمهور في سياق محدد. هذا المخاطب قد يكون مستمعًا أو قارئًا أو مشاهدًا، وقد يكون مشاركًا في موقف إنتاج الحدث الفعلي (مثل مشاهدي المسرحية الجالسي في صالة المسرح)، أو غير مشارك في إنتاج

الحدث الفعلي (مثل مشاهدي مسرحية جالسين أمام شاشة التلفاز). وفي الأحوال جميعها فإن الجمهور سوف يشتبك بأشكال ودرجات متنوعة مع خطاب المتكلم، وسوف يُمارس عمليات عديدة من التفسير والتأويل بهدف الوصول إلى معنى ما. إن دراسة التلقي في سياق تحليل التناص في الخطاب سوف تكون معنية بدراسة أثر التناص على عملية إنتاج المعنى، ودوره في توجيه الجمهور/المخاطَبين، نحو معانٍ مخصوصة. ويحتاج الباحث في معالجته للعلاقة بين التناص والتلقي إلى طرح أسئلة تغطي موقف التواصل والمشاركين فيها وآليات إنتاج المعنى، وذلك من قبيل:

- مَنْ الجمهور الفعلي، والمستهدف، والمحتمل للخطاب المضفَّر؟
- ما منطلقاتهم الإيديولوجية؟ وما التأثير المحتمل لها في توجيه تأويلاتهم وتفسيراتهم؟
- ما العلاقات بين المتكلم والمخاطبين؟ وما تأثيرها في عمليات إنتاج المعنى؟
- كيف أوَّل الجمهور وفسر التناص الخطابي؟ وما دلالة هذه التفسيرات والتأويلات؟

للإجابة عن هذه الأسئلة - وغيرها مما يمكن طرحه لمعالجة تلقي الخطاب- قد يحتاج الباحث إلى أدوات إثنوغرافية مثل الملاحظة والاستبيان والمقابلة. لكن بعض الأسئلة الخاصة بالتلقي يمكن أن تتحرك في أفق التوقعات، خاصة الأسئلة المعنية باستكشاف الوجوه المختلفة التي يُحتمل أن يؤول المتلقي خطاب المتكلم وفقًا لها. وسوف أقدم نموذجًا تطبيقيًا مأخوذًا من خطبة للرئيس المصري السابق محمد مرسي.

نموذج تحليلي (4):

"بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد بن عبد الله "صلى الله عليه وسلم".. "قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ[1]". شعب مصر العظيم، أيها الفرحون اليوم،

(1) سورة يونس، آية 58.

والمحتفلون بعيد الديمقراطية في مصر، أيها الواقفون في الميادين، في ميدان التحرير، وفي كل ميادين مصر، أحبائي.. أهلي وعشيرتي، إخواني وأبنائي (...)

(...) وأردد مؤكدًا – ونحن نفرح ونحتفل بهذه الديمقراطية العظيمة، بهذه الانتخابات، بفوز إرادة الأمة بالشكل التي تفرحون، وتحتفلون به الآن – ما أعلنته من قبل أنني لن أخون الله فيكم، لن أخون الله فيكم، ولن أعصيه في وطني، وأضع نصب عيني قول الله سبحانه وتعالى: "وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(1)". "وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ". ردِدوا معي أيها الأحباب: بإرادتنا ووحدتنا، بحبنا لبعضنا البعض، نستطيع أن نصنع المستقبل الكريم لنا جميعًا. قد لا يرى البعض ذلك من خارج هذا الوطن أو يستصعبه علينا شفقة بنا، ربما أو غير ذلك. ولكننا إن شاء الله قادرون على المضي بهذه المسيرة إلى غد أفضل، والله ولى التوفيق، وهو الهادى إلى سواء السبيل. أحبابي البعض يرى ذلك بعيدًا، ونراه معًا إن شاء الله قريبًا، وإنَّ غدًا لناظره قريب، و"وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(2)". والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته(3)."

الفقرات السابقة مأخوذة من مفتتح وخاتمة بيان الرئيس المصري السابق محمد مرسي عشية إعلان فوزه في الانتخابات الرئاسية بمصر 2012. وهي الانتخابات التي ساهمت في تعزيز انقسام المصريين بين معسكرات متباينة على خلفية اختلافات أيديولوجية وسياسية، بين مؤيد للحكم المدني، وداعم لعودة الحكم العسكري من ناحية، وبين مؤيد للحكم الديني وداعم للحكم المدني، وبين داعم لجبهة الثورة (بغض النظر عن إيديولوجية أنصارها)، وأنصار النظام القديم. وهي اختلافات كانت على درجة كبيرة للغاية من التعقيد والالتباس.

---

(1) سورة البقرة، آية 281.

(2) سورة يوسف، 21.

(3) للنص الكامل للخطبة انظر الرابط الآتي:

http://www.youtube.com/watch?v=HLwT973c3pI.

ينهل الخطيب في هذا البيان من ذخيرة خطابية دينية ثرية، ويتناص مع القرآن الكريم والسيرة النبوية وخطابات الصحابة الأولين، وتطغى المفردات الدينية على النص، سواء في شكل مفردات أو تعبيرات. وقد تكرر لفظ الجلالة وحده اثنتين وثلاثين مرة، بما يشكل أكثر من 2.3% من مجموع مفردات النص البالغة 1370 كلمة. علاوة على ذلك، ضفَّر الخطيب بين نوعي الخطبة الدينية والخطبة السياسية، وتمثل ذلك في افتتاح الخطبة وإنهائها بآيات قرآنية، واستخدام صيغ مخاطبة دينية، متنوعة مثل "إخواني، أيها الأحباب"، وممارسة بعض طقوس الخطابة الدينية، مثل توجه الخطيب إلى الجمهور بالحديث، وطلبه أن يرددوا وراءه: "رددوا معي أيها الأحباب". تسهم هذه الظواهر جميعًا في إحداث تمازج وتضافر متشابك بين نوعي الخطبة الدينية والخطبة السياسية. وفي الحقيقة فإن هذا التغلغل يصل إلى حد احتلال النوع؛ أي هيمنة خصائص نوع فرعي (الخطبة الدينية) على نوع فرعي آخر (الخطبة السياسية)، وهو بدوره شكل من أشكال التضفير بين الخطابين الديني والسياسي. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف يتلقى الجمهور هذا الخطاب المضفَّر؟ وما موجهات عمليات إنتاج المعنى التي يقومون بها؟

للإجابة عن هذه الأسئلة علينا بداية أن نحدد شرائح الجمهور المتلقي لهذا الخطاب، وهي تتسم بالتنوع والتمايز. فجمهور الخطاب الذي بُث عبر التلفزيون يتنوع بين الجمهور المحلي (المصريون داخل مصر وخارجها)، والجمهور الخارجي (العرب والأجانب من المتابعين للشأن المصري والمهتمين به). لكن التمييز الأهم يقع داخل فئة الجمهور المحلي ذاته. فثمة تقسيم على أساس سياسي بين الفريق الداعم للخطيب (أعضاء جماعة الأخوان المسلمين، ومناصريهم)، وقد خُصُّوا بإشارات بعينها داخل الخطاب مثل تعبير "إخواني"، "أيُّها الواقفون في الميادين، في ميدان التحرير وفي كل ميادين مصر"، في مقابل خصومهم في الانتخابات. وهناك تمايز ثالث على أساس ديني بين المسلمين والأقباط، وهناك تنوع من حيث المهنة والنوع والعمر ومحل الإقامة، حاول الخطيب تتبع مظاهره في إشارة إلى حرصه على مخاطبة الجميع.

من البدهي أن تؤثر هذه التمايزات في تلقي الخطاب المُضفَّر، ويُتوقع أن يؤول الأفراد والجماعات ذات الإيديولوجية الإسلاموية هذا الخطاب المضفَّر، استنادًا إلى

تصورهم الذهني للحاكم (المسلم)، وتصورهم للعلاقة بين الديني والسياسة، وهـو تصور يقوم على تطبيع الدمج بين الخطابين، حيث لا فصل بين الدين والسياسة بعامة، والإسلام والسلطة بخاصة. ويُتوقع أيضًا أن تتأسس صورة ذهنية للخطيب، يُشكِّل بُعد "التدين" ملمحًا مهمًا من ملامحها. ولم يكن من الغريب أن كثيرًا من التعليقات التي كتبت على النسخ الإلكترونية من الخطبة ركزت على هذا البُعد في شخصية الخطيب، وكانت الحجج الداعمة لهذا الملمح الشخصي هي كم الاستشهادات الدينية، وكون الخطيب "حافظًا للقرآن الكريم".[1] من المحتمل، إضافة إلى ذلك، أن تُثمِّن هذه الشريحة من الجمهور من الخطبة؛ لأن الخطيب يتماهى مع الصورة المثلى للحاكم "الإسلامي"، في هيئته وكلامه؛ ولأنه يعتمد على ذخيرة خطابية مماثلة لذخيرتهم الخطابية الخاصة؛ ولأنه يستخدم صيغًا للمخاطبة وطقوسًا للحديث تُطابق ما يألفونه في سياق الخطاب الديني. وسوف تؤوِّل غالبًا الآيات والعبارات التي تناص معها على أنها ترفع من قيمة الخطبة، وأنها تقدم صورة ناصعة للحاكم "المثال".

على النقيض من ذلك، فإن تأويل الشرائح التي تتبنى أيديلوجيات مغايرة للأيديولوجيا الإسلاموية، سوف يختلف، ربما بشكل جذري، مع التأويلات السابقة، بحسب الأيديولوجيا المتبناة. إذ من المحتمل أن يُنظر بتشكك للصورة الذهنية التي تبنيها الخطبة والعلامات المصاحبة لها للخطيب، بما يدفع باتجاه تعزيز مخاوف بشأن مدنية الدولة، استنادًا إلى دينية الخطاب. كما يُحتمل أن تؤول التناصات المكثفة مع النصوص المقدسة بشكل مغاير، حيث من المحتمل أن تُنشِّط هذه التناصات ذخيرة خطابية تاريخية شكلتها سرديات متنوعة، يتجلى فيها مخاطر الحكم باسم الإله، والآثار السلبية لهيمنة رجال الدين على السلطة. كما يُحتمل أن يُؤدِّي هذا التضفير الخطابي المكثف بين الديني والسياسي إلى امتحان ذخيرة خطابية أخرى، قريبة العهد بالتشكُّل، تخص خطاب مرسي نفسه في سياق المرحلة

(1) انظر على سبيل المثال التعلقات الموجودة على الرابط الآتي:
http://www.youtube.com/watch?v=HLwT973c3pI تاريخ الدخول 2014/9/22.

الثانية من الانتخابات الرئاسية، التي أنتج فيها خطابًا شبه مدني، وألح فيها على كونه يمثل الطرف المدني في الصراع الدائر على السلطة.

وعلى سبيل المثال، فقد تضمَّن بيان الرئيس محمد مرسي عددًا من العبارات التي تصوغ العلاقة بين الحاكم والمحكوم، من زاوية الحقوق والواجبات. هذه العبارات تنتمي جميعًا إلى الخطاب الديني، خاصة في عصر الخلفاء الراشدين. وقد تكررت عبارة "أطيعوني ما أطعت الله فيكم"، بصيغ مختلفة على مدار البيان. وعلى الرغم من القيمة الإيجابية لهذه العبارة؛ لأنها تتضمن وضع الحاكم في موضع التقييم والمساءلة؛ فإنها قد تنشِّط تلقيًا سلبيًا للخطاب؛ لأنها تحاكي نموذجًا في العلاقة بين الحاكم والشعب، يتعارض تمامًا مع التصور المدني للدولة. فالاستشهادات الواردة في الخطبة ترتكز على مفهوم الطاعة؛ فالحاكم له على "الرعية" حق الطاعة، ولهم عليه حق "الولاية الرشيدة". ويُعدُّ هذا إعادة إنتاج لخطاب "الوالي- الرعية". ويؤدي هذا إلى إزاحة مقلقة لخطاب "المواطن- الرئيس"، الذي يُنتج تصورًا مدنيًّا للدولة يقوم على تصوُّر الرئيس بوصفه موظفًا عامًا؛ لا تقوم علاقته بالمواطن على أساس الأوامر والنواهي، ولا يحكمها مفهوم الطاعة؛ بل تتأسس على علاقة عقد اجتماعي بين شخص يختاره المواطنون ليكون وكيلاً لهم في أداء مهام محددة، بصلاحيات محددة، ودائرة سلطة محددة. إنها علاقة بين موظف وصاحب عمل؛ الموظف هو الرئيس والشعب هو صاحب العمل. وبالطبع فإن لصاحب العمل اليد العليا في هذه العلاقة.

إن خطورة تأثير التضفير الخطابي في إنتاج معانٍ سلبية عند متلقي البيان يتزايد إذا وضعنا في الاعتبار أن كثيرًا من مقولات التراث الديني التي تخص العلاقة بين الحاكم والمحكوم – التي كُتب معظمها في ظل ديكتاتوريات دينية مستبدة – تمنح الحاكم سلطات واسعة على رعاياه. ولعلنا جميعًا ما زلنا نتذكر الفتاوى التي خرجت لتُكفِّر معارضي الرئيس مرسي، تحت دعوى "خروجهم على الحاكم". وهكذا فإن التناص عامل مؤثر للغاية في توجيه عملية إنتاج معنى الخطاب، وعنصر فاعل في توليد تأويلات المتلقين للخطاب.

إن دارس التناص يمكنه أن يُسهم في تحليل التلقي على نحو أفضل مما قدمناه في النموذج التطبيقي، لو أنه لجأ إلى جمع بيانات اثنوغرافية تخص عملية التلقي، سواء

بواسطة الملاحظة أو المقابلة أو الاستبيان أو غيرها من أدوات. فالبيانات المتوفرة عن طرق تأويل المتلقين لخطاب ما، ودور التناص في توجيه هذه التأويلات، سوف تنقل التحليل من دائرة التخمين والتوقع إلى دائرة الوقائع والمشاهدات. بما يُعطي للتحليلات قوة ومصداقية أكبر. وعلى الرغم من ذلك فإنني أعترف أن دراسة التلقي تواجهها دومًا قيود ومحددات، بسبب تعدد العوامل المؤثرة فيها وتنوعها. إضافة إلى ذلك فإن عملية التلقي تتضمن بُعدًا عصيًّا على المعالجة، هو العمليات التي تحدث بالفعل في الذهن أثناء معالجة الكلام، ودور المعلومات السابقة للمرء، وتحيزاته وميوله وطبائعه الشخصية في توجيهها. ومن هنا، فإن دراسة استجابات المتلقين للخطاب ربما كانت أقل صعوبة من دراسة التلقي، على نحو ما سوف يكشف عنه تحليل هذا البعد من أبعاد الخطاب في الفقرات الآتية.

رابعًا: تحليل الاستجابة

عرفت أدبيات تحليل الخطاب اهتمامًا محدودًا بدراسة استجابات الجمهور أو المخاطبين (عبد اللطيف، 2012). وعلى الرغم من وجود اهتمام بعمليات تداول الخطاب، فإن هذا الاهتمام عادة ما يركز على وسائط التداول ووصف المخاطَبين المشاركين في عملية التداول. أما تحليل ما يُنتجه المخاطبون من علامات لغوية وغير لغوية استجابةً للخطاب الذي يتلقونه، فلم ينل إلا اهتمامًا محدودًا. وقد اقترح الباحث في دراسات سابقة الدمج بين مقاربة العالم البريطاني نورمان فايركلوف في التحليل النقدي للخطاب، ومقترح عربي لدراسة استجابات المخاطبين، في إطار تحليلي واحد، وطُبِّق هذا الإطار في دراسات عدة (عبد اللطيف، 2009؛ 2011، 2012، 2014).

ينطلق هذا الاهتمام باستجابات الجمهور من المفهوم الذي يتبناه الباحث للحدث الخطابي، إذ يتشكل من مكونات (عمليات) أربعة؛ هي: (1) إنتاجه (أو تشكله) و(2) توزيعه (أو تداوله) و(3) تلقيه (أو إنتاج معناه) و(4) الاستجابة إليه. المكونات الثلاثة الأول استأثرت بالاهتمام الأكبر في الماضي، وربما يشكل المستقبل نقطة تحول في الاهتمام بالبعد الرابع، خاصة بالنظر إلى التطور الجذري

الحادث في حدود استجابات الجماهير وأشكالها وتأثيرها[1]. ومن الضروري في هذا السياق أن نبلور جملة من الأسئلة والإجراءات التي تُعبِّد الطريق أمام دراسته.

يمكن أن تدرس استجابات الجماهير بوصفها تجليًا لتأثير الخطاب، حيث تبحث العلاقة بين الخطاب (في تشكله وأدائه وتداوله) من ناحية والاستجابة من ناحية أخرى. وتُعد دراسة التأثير من أهم الموضوعات التي تحتاج إلى مزيد من الجهد من الباحثين؛ لأنها محاطة بإشكالات عديدة. من هذه الإشكالات على سبيل المثال، كيفية ضبط العلاقة بين الخطاب والاستجابة؛ أي كيفية البرهنة على أن استجابة ما هي نتاج مباشر لتشكيل الخطاب أو أدائه أو تداوله، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار التأثير الكبير للعوامل غير الخطابية في تحديد استجابات الجمهور (مثل القوى المادية، والحالة النفسية للجمهور، والمصالح والاهتمامات الفردية والجماعية)، إضافة إلى تأثير إيديولوجيا المتلقين ومعارفهم المسبقة. يُضاف إلى ذلك، صعوبة الربط بين استجابة بعينها وعنصر ما من عناصر الأداء أو التشكل أو التداول. وقد برهنتُ في دراسة سابقة على أن إحدى المشكلات التي عانت منها دراسة الوظائف البلاغية القديمة هي الربط المباشر بين ظاهرة أو سمة أو أسلوب ما، وبين تأثير بعينه أو استجابة محددة، وهو ما يؤدي إلى عزل المكونات الخطابية بعضها عن بعض، وإغفال حقيقة أن أثر الخطاب وتأثيره لا يُمكن أن يُعزى لعنصر واحد من عناصر تشكيله أو أدائه أو تداوله[2]. وتزداد إشكالات دراسة تأثير الخطاب إذا وضعنا في الاعتبار أن عملية التأثير ذات أبعاد نفسية مهمة، مثل تشكل الاتجاه، وإنجاز الإقناع، وترسيخ المعتقد، لابد أن توضع في الاعتبار أثناء المعالجة.

---

(1) تتبعت أهم مظاهر هذا التحول في دراستي المعنون بـ: تحليل الخطاب: بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية. مجلة فصول، فصلية علمية محكمة، الهيئة العامة للكتاب، مصر، عدد 83-84، 2013، ص 509 - 530.

(2) انظر: عبد اللطيف، عماد. 2014. جدل الظاهرة والاستجابة: دراسة في فخاخ البلاغة. ضمن "البلاغة والخطاب" تحرير د. محمد مشبال، منشورات ضفاف ومنشورات الاختلاف، المغرب، ص ص 203-240.

علاوة على ما سبق، فإن استجابات الجمهور يمكن أن تُدرس من زاوية عمليات الصراع والتفاوض التي تحدث بينها وبين الخطاب الأصلي الذي أُنتجت بإزائه. فالخطاب هو مجلى للسلطة، ومن الطبيعي أن علاقات السلطة تتبدى بوضوح في أشكال من التفاوض والصراع والتآزر بين الخطابات الأصلية والاستجابات. وتتكشف أهمية هذا البعد في دراسة الاستجابة بالنظر إلى خصوصية التواصل الجماهيري الراهن؛ حيث تكاد ساحة التواصل العام تتحول إلى ساحة صراع مفتوح بين الخطابات العامة واستجابات الجماهير.

يمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من استجابات الجماهير، النوع الأول هو الاستجابات الآنية المباشرة، والثاني هو الاستجابات الآنية غير المباشرة، والنوع الثالث هو الاستجابات اللاحقة. ولنتخيل على سبيل المثال مناظرة سياسية بين مرشحين انتخابيين، وأن هذه المناظرة تحدث في قاعة كبيرة، ويحضرها جمهور من مؤيدي المرشحين، وأنها أيضًا تُذاع عبر التلفزيون والراديو والإنترنت في بث مباشر، ثم تُحمَّل نسخة منها على اليوتيوب، ثم تنشر بعض المواقع تسجيلا كتابيًا للمناظرة، ثم يُعاد إنتاج هذا الحدث الخطابي في صيغ أخرى عديدة لاحقة.

إننا نتوقع أولاً أن يقوم الأفراد الحاضرين في قاعة التناظر بإنتاج استجابات آنية مباشرة قد تأخذ شكل التصفيق أو الهتاف أو الصفير أو الصراخ أو المقاطعة أو التشويش أو توجيه السؤال أو ربما إلقاء الطماطم والبيض، وغيرها من الاستجابات المحتملة، التي تُنتج في السياق الأصلي للتواصل، ومن ثم يستطيع المتناظران أن يستجيبا بشكل مباشر لها، ويمكن لها أن تؤثر بشكل آني على خطابهما الأصلي، على نحو ما سيفعل أحد المتناظرين حين يستجيب لبعض الاستجابات الاستهجانية بتقديم مزيد من الحجج لرأيه، أو التخلي عنه.

على صعيد آخر، فإن الجمهور الذي يتلقى المناظرة عبر التلفزيون أو الكمبيوتر أو الراديو يُحتمل أن يُنتج استجابات آنية، قد تتحول بدورها إلى خطاب حين تتاح في الفضاء العام، وقد تأخذ هذه الاستجابات شكل الضغط على علامة استحسان (like) أو عدم استحسان للحدث (unlike)، أو تعليق موجز على شريط التعليقات بشاشة التلفزيون أو رابط اليوتيوب الذي يُبث عليه

الحدث، أو تغريدة على تويتر، أو تعليق على الفيس بووك، أو صورة أو فيديو موازي أو كاريكاتير، أو أيٍّ من أشكال الاستجابة اللغوية وغير اللغوية التي يُنتجها استجابةً للحدث، وهذه الاستجابات آنية غير أنها غير مباشرة، إذ لا تُنتج في السياق الأصلي للتواصل، ولا تدخل في حالة تفاعل مباشر مع الخطاب الأصلي، على الرغم من أن مستشاري المرشحين قد يبلغونهم بفحوى هذه الاستجابات إذا تحولت إلى ظاهرة مؤثرة في مسار التناظر. وأخيرًا فإن المتلقين، بعد انتهاء الحدث الخطابي، يمكنهم تقديم استجابات لاحقة على الخطاب الأصلي، قد تأخذ شكل مقالات أو تعليقات أو بحوث أو مناظرات أو غيرها من مئات الأشكال اللغوية وغير اللغوية من الاستجابات.

نموذج تحليلي (5): العلاقة بين الاستجابة والتناص محاذير وإمكانات

قبل أن نشرع في تقديم بعض الاقتراحات لتحليل العلاقة المحتملة بين التناص والاستجابة يجب في البداية أن نؤكد أن التناص هو عنصر من عناصر عديدة تُشكِّل الخطاب، وأن العلاقة بين التناص والاستجابة في حدث خطابي مُعين، تؤثر فيها جميع عناصر التشكل والأداء والتداول، إضافة بالطبع إلى المكونات غير الخطابية، وهي بدورها شديدة التأثير في استجابات الجمهور على نحو ما بيَّنا سابقًا. غير أن المتلقي ربما يخص التناص باستجابة بعينها، كان يشير إليه أو يعلق عليه أو يُنشئ خطابًا موازيًا له، أو يُنتج استجابة غير لفظية متزامنة معه. وسوف أقوم في الفقرات الآتية بتقديم مفاتيح تحليل لاستجابة الجمهور للتناص في الخطبة نفسها التي قمنا بتحليلها في نموذج (4).

أول ما نلاحظه على هذا البيان أنه أُذيع عبر وسيط، بدون حضور جمهور مباشر. ويعني هذا أن إمكانية دراسة الاستجابات الآنية المباشرة غير متاحة؛ وأن البحث في الحوارية المباشرة بين الاستجابة والخطاب الأصلي غير ممكن. ولو أنَّ البيان أُلقي أمام جمهور مباشر، لكان من الممكن الإجابة عن أسئلة من قبيل:

- ما الاستجابات الفعلية للجمهور الفعلي للخطاب المضفَّر؟
- هل تقوم هذه الاستجابات بتدعيم أم مقاومة أثر التضفير الخطابي؟

- ما عمليات التفاوض أو الإرغام أو التجاذب أو غيرها التي تحدث بين استجابات الجمهور والخطاب الذي يتلقونه؟

فيما يخص النوع الثاني من استجابات الجمهور، وهو الاستجابات الآنية غير المباشرة، فإنه يتسم بالتنوع الشديد، ويحتاج إلى تتبع واسع. ففيما يتعلق بالكلمة السابق الإشارة إليها للرئيس مرسي، يمكن أن نعثر على استجابات آنية غير مباشرة في الفضاءات الآتية:

1- فضاء التواصل الإلكتروني: وتأخذ الاستجابة شكل تعليقات على الشريط السفلي للشاشة، أو أسفل شاشة البث الحي للخطبة في الإنترنت، ويمكن للباحث أن يحصل على هذه الاستجابات من المواقع مباشرة.
2- فضاء التواصل الاجتماعي الحي: كما هو الحال مثلا في تجمع منزلي أو في ساحة عامة أو مقهى أو أي فضاء مادي يجمع البشر، ويحدث فيه تواصل حي حول موضوع الخطاب. وتأخذ الاستجابة عادة الأشكال نفسها التي تأخذها الاستجابة الآنية المباشرة، إضافة إلى استجابات أخرى مثل قول تعليقات والدخول في حوارات بين المشاركين في هذا التلقي الآني غير المباشر للخطاب، ويحتاج الباحث للحصول على هذه الاستجابات إلى توظيف طرق الملاحظة، والتسجيل الحي لفضاء التلقي، وهو ما قد يحتاج إلى موافقة مسبقة من المشاركين.
3- فضاء التواصل الاجتماعي الافتراضي: وتأخذ الاستجابة شكل تعليقات أو صور أو كاريكاتير أو غيرها من الأنواع والعلامات. ويمكن للباحث تسجيل هذه الاستجابات من وسيط التواصل مباشرة.

وأخيرًا، فإن النوع الثالث من الاستجابات، وهو الاستجابات اللاحقة غير المباشرة، يمتد على مدى زمني واسع قد يصل إلى عقود طويلة بعد إنتاج الحدث الخطابي. وقد يأخذ أشكالا شديدة التنوع؛ فيمكن أن تأخذ الاستجابة اللاحقة شكل خطبة مفندة، أو مقال شارح، أو مشهد أدائي ناقد، أو محاكاة رمزية كوميدية، أو جرافيتي تهكمي أو تمجيدي، أو صورة معدلة (modified) أو

كاريكاتير ساخر، أو حوارات صحفية، أو لقاءات تلفزيونية أو إذاعية، أو غيرها من الأشكال. إضافة بالطبع إلى الاستجابات اللاحقة التي أُنتجت في وسائط التواصل الاجتماعي والالكتروني والافتراضي بعد انتهاء الخطبة.

وعلى سبيل المثال، فإن خطبة مرسي السابق الإشارة إليها، حفَّزت قدرًا هائلاً من الاستجابات اللاحقة، من أبرزها برامج التوك شو في الفضائيات، والمقالات والحوارات الصحفية، والبرامج الساخرة (مثل برنامج باسم يوسف)، والكاريكاتير، والبحوث الأكاديمية، والنكت، والشعارات، والجرافيتي، والأداءات المحاكية... إلى آخره. ونظرًا لأن هذه البيانات شديدة الاتساع والضخامة فإن الباحث لا يملك في النهاية إلا أن يعتمد آلية ما للاختيار والانتخاب منها. وهو ما يتحدد انطلاقًا من أسئلة البحث وغاياته. ففي سياق دراسة العلاقة بين التناص والاستجابة، يجدر بالباحث أن يركز على الاستجابات التي تتصل بالتناص المدروس. وهي في حالتنا تشتمل على كم كبير من البيانات التي ركزت على تناص الخطبة مع آيات قرآنية وأقوال دينية مأثورة، إضافة بالطبع إلى التضفير بين نوع الخطبة الدينية والخطبة السياسية. وقد خُصصت لقاءات تلفزيونية وحوارات وكاريكاتيرات ومقالات عديدة للحديث عن هذا التناص، وهي تقدم مادة مثيرة للاهتمام بوصفها استجابات للجمهور حفزتها ظاهرة التناص.

خامسًا: الخطاب الهجين: نزعة الألفة ومساءلة الاختيار

على مدار العقود الخمس الماضية ترسخت مقولات أصبحت تشكل جزءًا من الفهم العام للخطاب في الوقت الراهن. إحدى هذه المقولات هي أن العلاقات النصيّة، يتسع نطاقها لتشمل تاريخ استعمال المفردات والتعبيرات. ويمكن صوغ هذه المقولة في العبارة الخبرية الآتية: "كل الخطابات هجينة ومضفَّرة، وليس ثمة خطاب نقي". تبدو هذه النتيجة "بدهية"، وفقًا للتعريف الذي اعتمدناه للخطاب في هذه الدراسة. فقد عرَّفنا الخطاب بأنه "كلام و/أو نصوص و/أو علامات أخرى تُتداول في سياق محدد، وتنتمي إلى مجال نشاط إنساني معين"؛ إذ إنَّ كلَّ خطاب بشري يستجيب بشكل أو آخر إلى خطاب آخر. وكذلك، فإن مجالات النشاط

الإنساني، على الرغم من تمايزها، فإنها تتداخل وتتقاطع دومًا، بشكل يبدو حتميًّا. نظرًا لكونها تمثل في النهاية أبعادًا متنوعة للخبرة البشرية. وقد أفاضت نظرية المزج الاستعاري في تفسير كيفية تمازج الخبرات البشرية المتنوع، عبر المجاز، ودور هذا التمازج في بنينة الطريقة التي نفكر بها، وندرك العالم من خلالها[1]. كما بيَّن باختين بجلاء أن المفردات لا تُستعمل في خطاب جديد، وهي مجرَّدة من تاريخها الاستعمالي السابق، بل إن كل مفردة تأتي إلى الخطاب حاملة معها عبء هذا التاريخ بأكمله، بالطبع تؤسس المفردة تاريخًا فريدًا، لكنه يضاف إلى ذخيرة تاريخ استعمالها الخاص.

هذا الإدراك لـ "حتمية" التضافر والمزج بين الخطابات يُمكن أن يُستخدم حجة ضد دراسته من منظور نقدي. فإذا كان من غير المحتمل وجود خطاب "نقي"، فإن الخطاب المهجَّن يُصبح أمرًا طبيعيًّا، ويصبح من ثمَّ غير حقيق بالمساءلة. وعلى الرغم من أنني أسلِّم بصحة المقدمة؛ فإنني أظن أن النتيجة المشتقة منها غير دقيقة، بل ومضللة. ويحتاج هذا النقاش إلى بعض التفصيل.

لا يملك الباحث إلا أن يُسلِّم باستحالة وجود خطاب "نقيّ"؛ أو بصياغة أدق: استحالة وجود كلام أو نصوص أو علامات أخرى تنتمي إلى مجال واحد محدد من الخبرة البشرية، لا تتحاور مع أي خطاب آخر أو تتداخل فيه أو تتقاطع معه أو تُحيل إليه أو تستدعيه... إلى آخره من أشكال التناص العديدة. غير أن هذا التسليم لابد أن يُستكمل عبر تسليم آخر هو أن كل تناص إنما ينتج عن اختيار، ويؤدي وظيفة، ويُنجز غرضًا، ويترك أثرًا. فالتناص، بوصفه ظاهرة لا مفر منه، لكنه بوصفه عملية فإنه يُعدُّ اختيارًا نفعيًّا واعيًا. وعلى سبيل المثال، فإن إعلانًا تجاريًا متلفزًا عن المشروبات الغازية، لا يُمكن إلا أن يتضافر مع خطابات أخرى غير خطاب الإعلان التجاري (الإشهار)، لكن اختيار الخطابات التي ستتضافر معها، يحدث بحرية مطلقة، وفقًا لغرضية الخطاب. فمصممو الإعلان قد يصوغون

---

(1) انظر:

Fauconnier, Gilles; Turner, Mark. (2008). *The way we think: Conceptual blending and the mind's hidden complexities*. New York: Basic Books.

علاقات نصية مع خطاب الرياضة أو السينما، أو الغناء، أو التربية، أو العلاقات الشخصية، أو السياسة، أو الصحة، أو الدين... إلى آخره. ويقع على عاتق الباحث مسئولية طرح أسئلة تنزع الألفة عن الخطاب الهجين، وتسائل الاختيار.

تبدو عملية نزع الألفة ومساءلة الاختيار شديدة الأهمية، خاصة في النماذج التطبيقية التي قدمنا على مدار هذا البحث. يرجع هذا إلى حقيقة أنه يوجد رأي شائع بين بعض شرائح المجتمعات العربية، يرى بأنه ليس ثمة تمايز بين الخطابين الديني والسياسي. وعادة ما يستند أصحاب هذا الرأي إلى اعتقاد بأن الدين هو وعاء كل مجالات النشاط الإنساني، ومن ثمَّ فإن حضوره في خطاباتها أمر بدهي، بل وربما كان ملزمًا أيضًا. وتُعد عبارة "الإسلام دين ودولة"، التجلي الأكثر جلاءً لهذا الرأي فيما يخص العلاقة بين الخطابين الديني والسياسي. واستنادًا إلى هذا الرأي فإن تناص السياسيين مع النصوص الدينية ليس أمرًا طبيعيًا وبديهيًا فحسب، لكنه محبب أيضًا. والمحاولات الأكاديمية للتمييز بين الخطابين، والبحث في أغراض التناص، ووظائفه وآثاره، قد يُنظر إليها على أنها تستند إلى تصورات "علمانية"، تسعى لفصل الدين عن السياسة. وفي الحقيقة فإن هذه الآراء شائعة إلى حد كبير، على الرغم من كونها لا تستند إلى حجج قوية تدعمها، على نحو ما سأبين بالتفصيل.

إن التمييز بين الخطابين السياسي والديني يستند إلى واقع التمايز بين مجالين من مجالات النشاط البشري؛ الأول هو مجال الدين، ويُنتَج فيه خطاب له تقاليد خاصة، وشروط تواصل معينة، وفهم محدد للعلاقة بين المشاركين فيه، وذخيرة خطابية متراكمة؛ أما الثاني فهو مجال السياسة، وهو، بدوره، يُنتج خطابًا له تقاليد خاصة، ويؤسس شروط تواصل معينة، ويترسخ فيه فهم محدد للعلاقة بين المشاركين فيه، وتراكمت فيه ذخيرة خطابية كبيرة ترفده. ولعل التمييز بين الأنواع الفرعية استنادًا إلى مجال النشاط هو التجلي الأبرز للتمايز بينهما؛ وقد عرف العرب منذ وقت مبكر التمييز بين الخطبة الدينية والخطبة السياسية، وحدّد لكل نوع فرعي منهما خصائصه البنيوية والتداولية الفريدة.

إن البحث في غرضية المزج بين الخطابات هو السؤال الأهم في سبيل فهم كيفية عمل الخطاب الهجين، ويمكن أن نستعين في سبيل تحقيق ذلك بالأسئلة الآتية:

- ما خصائص الخطاب الذي ينتمي إليه الخطاب الهدف؟
- ما خصائص الخطاب الذي ينتمي إليه الخطاب المصدر؟
- ما خصائص الخطاب الهجين الذي ينشأ من التضفير بين الخطابين؟
- ما الحوافز الدافعة إلى المزج بين الخطاب المصدر والهدف؟
- كيف يعمل الخطاب الهجين في ظل شروط تاريخية محددة؟

إذا نظرنا إلى الخطب التي سبق دراستها فإنه يتبين لنا أنها تنتمي إلى الخطاب السياسي من ناحية، وإلى نوع الخطبة الرئاسية presidential speech من ناحية أخرى. تتحدد العلاقة بين المتكلم والمخاطَب في الخطبة الرئاسية بأنها علاقة بين رئيس ومواطن. هذه العلاقة تقع في إطار الحقوق والواجبات المتبادلة، ويحكمها عقد اجتماعي يحدد الدستور طبيعته. والخطبة الرئاسية هي نوع من الخطب السياسية، التي تُعد وفقا للتحديد الأرسطي خطابا استشاريا يعرض فيه المسئول على المواطنين ما فعله أو يفعله أو سيفعله بغرض إعلامهم أولاً، واستشارتهم ثانيًا. والخطاب السياسي يتوجه إلى كل المواطنين دون استثناء. فهو خطاب عام لا يمارس تمييزا دينيًّا أو عرقيًّا أو سياسيًّا؛ حيث إنه ينبني على مفهوم "المواطنة" الذي يُلغي أيًّا من هذه التمييزات. نظريًّا، لا توجد قيود على استجابة المخاطَبين بالخطبة الرئاسية. وتتراوح الاستجابة بين المناقشة والحجاج، القبول والرفض، أو التصديق والتكذيب، أو التأييد والاعتراض، أو التبرير والتفنيد. ولا تتأثر العلاقة بين المتكلم والمخاطَب بسبب أيٍّ من هذه الاستجابات؛ فالمخاطَب الذي يناقش الخطاب السياسي للرئيس أو يعترض عليه أو يرفضه أو يفنده يمارس حقا مشروعا تكفله له المواطنة. والرئيس/السياسي لا يقبل هذه المناقشة أو الاعتراض أو التفنيد... إلخ فحسب بل يقع على عاتقه توفير المناخ المناسب لممارستها.

يضعنا التحديد السابق لخصائص الخطابين الديني الإلهي والسياسي البشري أمام حقيقتين؛ الأولى: تخص الاختلاف العميق بينهما من زاوية سياقات الإنتاج

والتداول والتلقي والاستجابة. ويمكن تلخيص تصوير هذا الاختلاف بأنه يماثـــل الاختلاف بين الإلهي والبشري عند المؤمنين الخلَّص. الثانية: أن الخطاب الديني له قوة استثنائية مستمدة من التقدير الاستثنائي الذي يعطيه المتدينون للمصدر الـــذي يستند إليه أو يعاضده؛ أعني الإله. وأن هذه القوة الاستثنائية لا يخضع لهـــا مـــن يؤمنون بهذا الخطاب فحسب، بل إنها تمارس تأثيرا – ربما كان أكبر – على من لا يؤمنون بالخطاب أيضا؛ ويرجع ذلك إلى أنها تســـتطيع ممارســـة إقصـــاء ومحـــو خطابـــي ومادي للمخالفين. ومن ثمَّ فإن التضفير بين الخطابين السياسي والـــديني ينقل إلى الخطاب السياسي بعض خصائص الخطاب الديني، خاصـــة مـــا يتعلـــق بضوابط الاستجابة، وقيود التلقي.

خاتمة

حاول هذا البحث تقديم إطار نظري ونماذج تحليلية لكيفية تحليل التنـــاص في الخطاب، وقد سعى البحث إلى تقديم تحديد مفاهيمي وتعريفات إجرائية لحزمـــة مصطلحات تنتمي إلى حقل العلاقات النصيّة. تضمّن إطار التحليل خمس مراحـــل تعالج الأبعاد المختلفة للحدث الخطابـــي، منذ إنتاج الخطاب حتى الاستجابة لـــه. وقدم إجراءات محددة لتحليل التناص، وصاغ أسئلة بحثية تفصيلية تخصّ كل إجراء من إجراءات التحليل. طُبّق هذا الإطار التحليلي على مدونة صغيرة من خطـــب عربية تضفِّر بين الخطابين الديني والسياسي. وساهم تحليل هذه المدونة في الكشف عن بعض آليات عمل الخطابات المضفّرة، خاصة في الفضاء السياسي العام. ويأمل الباحث أن يوظَّف الإطار التحليلي المقترح في هذه الدراسة مســـتقبلاً في تحليـــل التناص في خطابات ومدونات أخرى، أكثر اتساعًا وتنوعًا.